الرأس والنهر

لأدونيس

(جسر قديم . ضفة على النهر تظللهـا ثلاث اشجار : حورة وصفصافتان . نساء مشوهات يظن انهـن ممرضات . عجوزان . ام مشوهة وطفلها . ثلاثة شيوخ. شبان مشوهون يستلقون تعبا وجوعا . تجري مياه النهر بطيئة موحلة .)

١ ــ القول

شيخ (بصوت ضعيف) :

الحرب زريبه
غنم ...

شيخ (بنبرة من يمزح) :

قالوا
ان الحرب حقيبه .

(يصمت . يتابع بشيء من الجد) :

لو ان الحرب حقيبه
للأناها
خرزا
وجلسنا فيها
وصبرنا ...

شاب (يظن انه كان جنديا) :

قالوا
ان الحرب وساده

(يتمدد كمن يحاول ان ينام)

وانا الوسن

شيخ ٣ (بنبرة حكيمة) :

الحرب وساده
للموت ،
وعاده .

(صمت . يتابع بلهجة غاضبة)

هذا الوطن
زرع ،
والايام جراده .

اصوات (بعيدة ، مجهولة) :

قوافل سوداء مجهولة
تكمن تحت الماء ،
هل انت ، يا سلالة الآباء
تجيء في ليل من البهار
من توابل الرؤوس
والقتل ،
من توابل الغابات والفؤوس
هل انت ، يا سلالة الامواج
تصعد نحو كوكب المجهول ،
كالمعراج ...
من انت ، من يجيبني ؟ حنيني
نما هنا كسروة وطال
وها هو السؤال
في جسدي ،
بحيرة ...

٢ ــ الزمن المكسور

الجوقة (غير منظورة) :

سيجيء السيل
قبل حلول الليل

(ما من احد يهتم . يدخل شخص يحمل نايا يظن انه راع)

الراعي (بلهجة طبيعية) :

حلمت ان رأسا
في النهر ...

(تقاطعه امرأة ١ ، وتسـأله بسخـرية ناعمة) :

امرأة ١ :

هل سمعته يغني
كرأس اورفيوس ؟
تذكر اورفيوس ؟

الراعي (بلهجه واثقة) :

سمعته يقول :

(صمت . يتابع كمن يتذكر)

« في البدء كان النهر
كان حطام الزمن المكسور
يصهر في تنور
من غضب الامواج ،
كان الجمر ... »

(يخرج الراعي)

اصوات (بسخرية قاسية) :

ها ها
رأس محتال
ها ها
رأس دجال

(دوي انفجارات بعيدة. موسيقى صاخبة. ثم تتابعهذه الاصوات الثلاثة الحوار التالي):

صوت ١ :

في البدء كان خاتم الولايه

صوت ٢ :

وكان في النهايه

صوت ٣ :

في البدء كان النفط والمنجنيق
وزوجة البطريق .

صوت ٢ :

في البدء كان رأس
يدور كالدولاب

صوت ١ :

في البدء ، كانت قبة المحراب

(صمت . يتابع كأنه في حلم) :

دخلت تحت قشرها
صعدت ــ حين عدت
رأيت ان الشمس خيزرانة
مورقة تلتف حول بابي .

صوت ٣ :

في البدء كانت عثة
تبيض في ثيابي ...

(يفرك بيديه الاثنتين صدره وفخذيه . تعود الاصوات الثلاثة فتردد معا)

الاصوات الثلاثة (بسخرية حادة) :

ها ها
رأس محتال
ها ها
رأس دجال ...

(قهقهة ساخرة . اشخاص كالاشباح يعبرون النهر قرب الجسر ، يحملون احذيتهم وامتعتهم واطفالهم .)

٣ ــ القمر والرمانة

(موسيقى حب وموت . دوي انفجارات بعيدة .)

شيخ ٣ (مستغربا) :

* لا تريد هذه القصيدة ، رغم انهـا تستعين بصيغ مسرحية ، ان تكون مسرحية او اي شكل مسرحي ، انها قصيدة وحسب.

كيف يسير الرأس والانسان
لا يسير ؟
امرأة ١ (ساخرة) :
كيف يغني الرأس والانسان لا يغني؟
شاب ١ (متهكما) :
الرأس لا يسير بل يطير ...
(صدى صوت يبتعد هو صوت الراعي)
الراعي (من بعيد) :
تسبح عن يساره
تركض عن يمينه
الضفاف
والارض وجه امرأة
تطوف ،
والطواف
تفاحة ...
امرأة ١ (تتناول حصاة كالتفاحة وتقدمها الى شاب ١ يجلس قربها) :
هذه لحظة الدخول الى الهوة
المستنيره
هذه لحظة اللقاحات والليلة
الاخيره ...
(يتعانقان وهو يأخذ الحصاة . يتمددان ويتهامسان .)
شاب ١ (معانقا امرأة ١) :
لي شهوتي
ان اشعل النهدين
في ايامي الغريبه
ان اعرف الحياة
لا السلطان
اسهر في بستان
يسهر فيه قمر الحبيبه .
(موسيقى موت وحب)
شيخ ١ (فجأة الى شيخ ٢) :
نزل القمر
طوّف حول نوافذنا
وترصدنا
كان الموت دليلا
كان الحجر
وبكى القمر .
شيخ ٢ (كأنه يستيقظ من النوم) :
... وسجد النجم
وكان في يساره
قوس
وفي يمينه سهم
فسقط العدو ...
(صمت . ثم يتابع كأنه يحلم)
... رف حولي
جبريل ، قال : ابشر
ومد لي سكرة
طعمتها ،
ولم يزل في فمي الطعم .
(يحرك شفتيه ولسانه كمن يتذوق طعم سكرة طيبة . تلمح جثة منتفخة لفظها النهر. جثث تنقل من بعيد قرب الجسر . دوي انفجارات بعيدة .)
الجوقة (غير منظورة) :
تقيأي رملك يا مدينه
وجهك وجه صخرة
والكون في وجهك مثل دمّل
(صمت . امرأة تحتضر ، تموت ، يغطيها شخصان ، يحملانها ويخرجان . تتابع الجوقة بايقاع غاضب) :
القمر الشيخ كتاب شرع
حرقته ،
والزمن انهدام
في رئتي ، ووجهي
ينشق مثل قبر ...
تقيأي رملك ، يا مدينه .
(موسيقى موت وغضب)
شيخ ٢ (كأنه لم يسمع الجوقة ، متابعا حديثه الاول) :
نادتني الرمانه :
خذني كما تراني
مليئة عريانه
كلني ...
أكلت ،
طالت ،
وسكرت بحبي
وحملت في العام مرتين ...
شيخ ١ (يجيبه حالما) :
حلمت :
دار الوجد
خطفني ،
دخلت بيت النار
خرجت يساقط مني الورد
كأنني اذار او نوار .
(موسيقى قديمة سحرية)
شاب ١ (الى امرأة ١) :
نهداك ، في نهديك طفلتان
واحدة تموت من هزال
واحدة تذوب في قنبله
فلنكسر الزمان
كالغصن ،
ان الكون بهلوان
ان اله العالم المقصله .
(موسيقى غضب وقوة .)

٤ ـ السيل

(الام تحتضن طفلها ، منتظرة موته بين لحظة واخرى . يدخل الراعي ، مسرعا)
الراعي (مخاطبا الجميع) :
ابتعدوا ،
تحركوا ،
فالسيل ...
(يقاطعه صوت ساخرا) :
سوف يجيء السيل
قبل حلو الليل ...
(يخرج الراعي)
الجوقة (غير منظورة) :
نعرف ، هذا زمن السيول
نعرف ، هذا زمن الافول
(صمت . موسيقى ايقاعية سريعة)
صخر يحت صخرا
نهر يطم نهرا
سيف يقص سيفا
(صمت . الموسيقى تتباطأ)
نسمع ان آتيا
يغير الدروب
يدهن وجه الارض ، يستبيه
ينفخ فيه الداء والشحوب .
نسمع : افخاذ من البلّور
آتية في السيل ،
كل فخذ
مبطّن
كأنه بلقيس ،
او كأنه تيمور .
(صمت . الموسيقى تعود الى التسارع
نعرف ـ
افراس ،
وحوش ماء ،
تجيء في السيل ،
وفي الضفاف
تطوف غابات من القبور
وانتهت الاجيال والعصور
وما انتهى المطاف .
(يموت الطفل . تحتضنه الام)
الام (بصوت مخنوق) :
يا موت ،
يا صديق الاطفال
ضم طفلي ،
واحمل له العابه ،
واطبق

جفنيه كي يحلم ، كي يراني ...
ادخله في بلاد
جديدة ، يرود
اسرارها ،
يبقى ولا يعود .

(تضع الام طفلها على الارض ، دون غطاء. تخلع عجوز ١ معطفها الاسود الممزق وتغطيه. يدخل شخصان مقنعان يحملانه ويخرجان . موسيقى جنائزية .)

الجوقة (غير منظورة) :
تفتحي يا وردة الدماء
في جثة العصفور ،
في صبيه
محروقة ،
في نهر الاشلاء
في الاطفال يخنقون في السماء
يابسة مدهونة كوجه مومياء .
تفتحي كبذرة خفيه
لدورة الفصول ،
تفتحي
هذا هو اللقاح
هذي رعشة الحقول .

٥ ــ صوت من الماء

(دوي انفجارات بعيدة . اسراب طيور فوق الجسر . يدخل شاب صغير السن اتعبه الركض كما لو انه كان يسابق مجرى النهر .)

الشاب (صارخا) :
رأس مهيار يجري
مات مهيار مات ...

(يخرج راكضا)

شيخ ٣ (دون دهشة ، لنفسه) :
يخطر لي خاطر
وفجأة ،
اراه مرقوما على ثيابي .

(صمت . لنفسه)

عرفت ان موته قريب ...

الجوقة (غير منظورة) :
رأسه الجرح والنزيف
رأسه حولكم يمامه
تحمل الارض كالرغيف
رأسه حولكم علامه .

(صمت . موسيقى موت قوية)

مات مهيار مات
مثلما تنضج العناقيد او يزهر النبات
مثلما يكسر القمر
وتهد البيوت
مثلما يطفأ الشرر
مثلما تحضن البراكين اسرارها
وتموت ...

(يسري جو من الرهبة يرافقه نوع من الحزن في نفوس الحاضرين ، الا قلة من الشبان .)

شاب ٢ (يحتضن زجاجة فارغة) :
اقيم في همومي
كأنني اقيم في زجاجه
مملوءة بآية البخار
اعيش كالدجاجه
أوثر ان اعيش كالدجاجه
في حوشي المغطى
بالقش والغبار .

شاب ٣ (يجلس القرفصاء محركا التراب):
ابحث في مملكة الرماد
عن وجهك المدفون ، يا بلادي .

شاب ٤ (بغضب) :
كيف تكتم الشمس عن عيوننا
وتوصد الابواب
امامنا ،
هل نحن من سلالة اليقطين
ام سلالة اللبلاب ؟

الجوقة (بما يشبه الترتيل) :
لان في اعماقنا بقيه
من خدر التاريخ ،
من غيلانه الخفيه
مات ،
لان العالم اغتصاب
وارضنا ضحيه .

(صمت . موسيقى هادئة)

صوت من الماء ، يقول الصوت :
مات لكي ينهي عهد الموت ...

شاب ٥ (بشيء من التمرد اليائس) :
من اين ؟ كيف نفتدي ، نعاني
تفتت الانسان او تفتت المكان
وارضنا في الثلج والحراره
ارملة تجر ناهديها
كخرقة .
كأنها لم تعرف البكاره
ولم تذق ذكوره الزمان .

الجوقة (بترتيل) :
صوت من الماء ، يقول الصوت :
مات
لكي ينهي عهد الموت .

(موسيقى هادئة . اسراب طيور فوق الجسر . جثث تنقل من ضفة الى ضفة .)

الام :
زمن الموت يبدأ
اين ارمي خطاي ، اشرد ،
ام اين الجأ ؟
غرقت رقعة الزمان
ولم يبق مرفأ .

(تبكي)

امرأة ٢ (حاضنة الشاب ١) :
زمن الحب في دمي
لهب لا يمهل
لون صدري جزيرة
لون ثديي مرجل
لك عيناي مرفأ
لك فخذاي جدول
والغبار الذي يلف ذراعيك مخمل
لي بلاد ومخمل .

الشاب ١ (فيما يطوق خصرها) :
خصرك لي نموذج وصوره
لهذه المعموره .

(موسيقى جنسية صاخبة . تهدأ الموسيقى ، فيسمع من بعيد صوت يخرج من ماء النهر ، يظن انه صوت الرأس)

الرأس (صوت بعيد) :
اقربي والمسيني
اقربي واحضنيني
ثوّري يا بلادي
شرري وانثريني ،
انني لحظة المعجزات
لحظة الموت والحياة
لحظة من حريق العصافير في غابة الصباح
لحظة تنسج الرياح
جبه
ترفع الطبيعه
بيرقا ،
والفجيعه
صورها النافخ البشير ،
لحظة الفارس المشرد والعاشق الاسير

(صمت . يقترب الصوت)

ليس صوتي الها
ليس صوتي نبيا ...
صوتي النار والنفير
صوتي الصاعق المزلزل ، والفاتح المغير .

الجوقة (غير منظورة) :
وجه مهيار في الماء يسطع كالجوهره
لم يعد غير صوت
والحقول المزامير ، والنهر والحنجره

اصوات (بسخرية) :

هاها
رأس يسرق ملك الناسْ
يهذي ،
يتجرّس كالاجراس
هاها
رأس الخناس الوسواسْ ...

الرأس (صوته يقترب شيئا فشيئا) :

تقذفني اصواتكم بالحجار
اصواتكم فوق جبيني دم
حول جبيني غبار
اصواتكم حصار ،
لكنني محصن
بصوتي
محـرر
برفضي البارىء ، بانفجاري
كأني المهب أو كأني البركان
باسم الغد الصديق ،
باسم كوكب
سميته الانسان .

(صمت)

وكان موتي عشبة
في الماء ، مثل طفلة من زهر اللوتس
مثل نورس
يعرف ان يكون
زنبقة بيضاء قوس قزح
يحب ان يكون
كالبحر ، نبضا هائجا
وغابـه
من فرح كالموج ، من كآبه
ترقد تحت شجر الصفصاف مثـل
طفلة .
وكان موتي طائرا
حوم في خميلة الغرابه
وطـار ،
صار نهرا يفيض ، صار رأسا ...
وكان موتي لاجئا
في فجوة الزمان ــ كان لاجئا
يضيء مثل كوكب يضيءْ
وكان موتي فوهة الزمان ، كان الوعد
والمجيء .

الجوقة (غير منظورة) :

مد لنا يديك
أفرغ لنا تاريخك الملآنْ
نلمح في عينيك
من دمنا
ناعورة ونبع
يا وطنا عطشان
يا وطنا ممتلئا بالدمع ...

الرأس (وحده) :

غارقا
تحت جلدي
لابسا ملحه وشحوبه

قمرا كنت
والرؤوسْ
صور ومرايا
ومشت فوقي الحقول
ومشتْ تحتي الفؤوسْ
كنت اغنية العريس ومرثية
العروس ،

كنت نيلوفرا عشقته
نجمة الدمع والعذوبه

كنت مثل السفينه
حملت صيحة المدينه
وعلونا معا وسقطنا
في مهب الشباكْ
مثلما تسقط الحضارة او
يسقط الملاك .
ذاكر جثة البلاد
وتقاطيعها الحجريه
ذاكر جذوة التفتت في سلم الرماد
والطريق النحيل واشراكه القمريه.

اثقبوا جبهتي قيدوني
وخذوا حربة وانحروني
مزقوني كلوني
واقرأوا كيمياء المدينه
بين اشلائي الامينه .

الجوقة (غير منظورة) :

جسد مكسورْ
جسد مغروس في انبريه
والنهر دم والموجة نور

جسد هدته الحريه
جسد تبنيه الحريه ...

الرأس (بصوت يزداد عمقا وحزنا) :

ان شعبا يسافر كالقبر في خطواتي
لم يعد قادرا ان يكون
غضبا او شراره
لم يعد قادرا ان يبشر او
يأخذ البشاره
ليس في غابة الذكاء ولا خيمة
الجنون
انه شعبي المتناثر في كلماتي ...

غارقا تحت جلدي
لابسا ملحه وشحوبه
غير اني كلام الطبيعة شبابة
الطبيعه
عاليا عاليا كالجبال
غارقا تحت جلدي
في صباح الطفوله
فوق ما تجْمَحُ الرجوله
فوق ما تأكل الاعاصير ما تشرب
الرمال
فوق ما تبطش الفجيعه ...

صانع غيركم اصدقاءَ
صانع غيركم فضاء ...

الجوقة (غير منظورة) :

صوتك مسنون كالرمحْ
يرد الارض الوحشيه
والانجم تسقط مثل القمح

في اهراء البريه ...
فارس ،
يا عراف الحب ــ لايّ مكانْ
تمضي ؟ من أي مكان
خذنا ، خذنا ...
الدنيا سرج يدعونا
والنهر حصان .

(موسيقى سريعة هادرة . ينهض الجميع خائفين لان السيل فاجأهم . يحاولون ان ينجوا ، لكنهم يعجزون ، ويجرفهم . فيما تغيبهم امواجه يبدو الرأس جاريا على صفحة النهر كأنه جزء من الماء .)

الرأس (بصوت مهيب) :

سار أمامي جسدي
أزمنة ، مدائنا
تواكب النهر
مَسْرَحُها بضفتين : الحب والبشر .
اليوم أكملت اكتملت ــ صوتي
يفهمه الزلزال والاطفال والربيعْ
يفهمه الجميع :
صوتي لا يرد مثل موتي .
سكنت كل عشبة
آلفت بين الصخر والنبات
بين غبار الطلع والمرايا

ــ التتمة على الصفحة ٧٩ ــ

تتمة ((الرأس والنهر))

ـ المنشورة على الصفحة ١٢ ـ

وجنس أغنياتي .
لـي لغة
لا تعرف التخوم لا تحدها الشطآن
تحدها علامتان : الشمس والانسان .
وها أنا أطوف كي ازلزل الحدود ،
كي أعلم الطوفان .

الجوقة (غير منظورة) :

نقرأ في الطوفان
كتابـة
عن وطن ينحت مثل ورق
يتعب كالرغيف تحت فك
يشرد مثل كوكب ...

اصوات (ساخرة ، بعيدة ، غير منظورة، مقاطعة) :

وطـن :
سلة صبير حمراء
منخل ماء .
وطن يفتح كالدكان
وطن يقفل كالدكان
وطن الجثة والغربان .
وطـن :
صوت يمشي
يتقوس مثل الظهر .
وطـن :
دهر يسكن تحت الدهر ...

الجوقة (بايقاع سريع) :

نقرأ في الطوفان
كتابـة
عن وطن تجوس في عروقه
الساعات كالذئاب
تنهش كل زهرة
وتنهش الاطفال والحجار والتراب ،
عن وطن يولد
مثل لؤلؤ المحار
مثل الفتك والعذاب ،
نقرأ في الطوفان
كتابة ،
عن وطن
يسكن مثل شهقة
في رئة الانسان .

الرأس والجوقة معا :

نبتت زهرة على الضفة الاخرى
بموتي ،
صرت المدى والمدارا
أبديا أمضي الى النبع أو أقبل منه ،
أكون كالرعد
صوتا حاضنا برقه ، وكالبرق نارا،
ولي الضوء والمسافات يا شمس
وبيتي كبريتك المكنون
ولي الليل والنهار
وفلـك
بمرايا وجهيهما مشحون .
غائب حاضر كمائك يا نهر
حويت الاسماء والاشياء
فاحتضني واستنفر الرعد في صوتي
وهجس التكوين ،
والانـواء
واجر يا نهر فطرة
وكن النشأة ،
كن أبجدية عذراء ...

(صمت . اسراب طيور فوق الجسر . فيما يغيب الرأس يسمع صوته يبتعد شيئا فشيئا)

الرأس والجوقة معا (بايقاع هادىء) :

لي لغة
لا تعرف التخوم لا تحدها الشطآن
تحدها علامتان : الشمس والانسان
وها أنا أطوف كي أزلزل الحدود ،
كي أعلم الطوفان

(موسيقى غضب وفرح .)

ادونيس

التوسعية والاعتدائية .. نريدها ان تتحول الى واقع كفاحي يضم ليس المثقفين العرب ، وحدهم ، بل كل المثقفين الاخيار ، في العالم .. وهنا تتجدد وظيفة الادب الثوري الاساسية في هذه المعركة ، التي تحولت من خلال النكبة الى مسألة استراتيجية في تفكيرنا وجهودنا واقتصادنا ..

ينبغي ان لا نكتفي بازدراد النكبة ونصمت .. ونشير الى الادباء والفنانين ورجال السياسة والمسؤولين باصابع الاتهام .. ومع اننا يجب ان نسجل ادانتنا لكل الذين يملكون المبادرات الرسمية ، من قادة دول ، الى قادة حركات جماهيرية ، الذين تخلفوا عن المعركة بشكل او بآخر ، فيجب ان نناشد جماهير شعبنا ان تبادر للالتفاف حول قياداتها الحقيقية النابعة من وسطها .. لخلق واقع رصين يتحمل عبء المعركة ويدفع بطاقات الشعب الكفاحية لخوض معركة الشرف والمصير .. بزخم استمراري واع لصياغة وجوده المعركي وصيانته .. وتحديد ابعاد انطلاقاته ..

وهذا لا يتم ، باعتقادي ، الا عن طريق جبهات وطنية مناضلة لخلق حكومات دفاع وطني ائتلافية .. خاصة وان المعركة ، ضارية جدا « وحقود .. وهي خليقة بالملاحم » ..

بغداد

محمد الجزائري

١ ـ ادب المقاومة في الارض المحتلة ـ غسان كنفاني ـ دار الاداب ص ٤٧

٢ ـ نفس المصدر .. ص ٨١

٣ ـ نفس المصدر ..

٤ ـ انطون بوبوف : شاعر بلغاري اعدم مع زميله الشاعر الشهيد فابتزاروف اللذين تلي عليهما حكم الاعدام في الساعة الواحدة بعد ظهر ٢٣ تموز ١٩٤٢ .. واعدما .. لمحاربتهما ومقاومتهما الباسلة ضد الحكم العميل (حكم الملك بورمي) الذي اقر اتفاقية مع المانيا وايطاليا في عام ١٩٤١

« وفي مسمع فابتزاروف لا تزال كلمات الفتاة التي اثبتت شجاعتها وهي تتزوج بوبوف وهو على عتبات الموت ، والتي غنت له بعذوبة خفيفة ابياته الحزينة الواثقة كي تبعث في نفسه الشجاعة »

(فابتزاروف شاعر بلغاريا الشهيد ـ احمد سليمان الاحمد ـ منشورات مكتبة المعارف بيروت) .

٥ ـ توفيق زياد : شاعر فلسطيني من (الناصرة) والمقطع من قصيدة بعنوان (١ ـ على جذع زيتونة)

٦ ـ وحياكة الصوف : اشارة الى مدام لافيارج التي كانت تحوك بالصوف اسماء اعداء الشعب الفرنسي عام ١٧٨٩ لتقتص منهم الثورة بعد انتصارها .. وتوفيق زياد اسهم مع محمود درويش من (اليروة) وسميح القاسم من (الرامة) وسالم جبران ونايف سليم وحليم بركات وغيرهم من تسجيل روح المقاومة في قصائدهم وتآليفهم التي تعتبر بحق وثائق نضالية جليلة .